

ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- ١٣ -

لقد آذاني معالي السيد أرشد العمري ، وكلمت غيظي فلم أسمعه ما يكره ، وقلت في نفسي : إن الرجل تصور أنني أهنته فسحب مني الدعوة ، والجروح قصاص
وقلت : هم سيقضون السهرة في الرقص وسأقضيها في التأليف وأنا أجد لذة ممتعة حين أراي أجد في وقت يلعب فيه الناس وتذكرت أنني أشغل مطبعتين في بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف في المنزل فأحضر بعض الوقود للجحيم المطابع وكذلك اطمأنت إلى الزهد في ليلة بغداد التي وعِدَ بها المؤتمرون !

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هي دعوى لسياحة طريفة في ضواحي الكرخ وبغداد ، تنفرج بها على إسالة الماء . وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر في بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلمين المالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العميون

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثاني كتابة بحث لمجلة الفتى عن تكوين الصهاريج

فهل روحت عن نفسي وأعددت مواد البحث المنشود ؟ ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمي حين رأيت صاحبة المينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية في تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النقي ، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة المينين . ومن العجيب أن أمري لم يتكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أنني كنت المستمع الواعي ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تسقيان من دجلة لا من الفرات ولثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

ومضينا فتناولنا الشاي والفاكهة فوق المشب الأخضر وبين الأشجار التي أذوتها أرواح الشتاء ، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبوب وديني زاد وجدى والبعد كاويني
فكانت بلد المحبوب عندي هي المائدة التي تجلس عليها صاحبة المينين ، ولكن أين من « يوديني » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بيني وبينها غير ثلاث خطوات
يا مسافر على بحر النيل أنا لي في مصر خليل
فرمقتني صاحبة المينين بنظرة حنان . فن الذي أعلمها أنني نشأت في ديار النيل ؟ من أعلمها ذلك وعلى رأسي سدارة ، والمصريون كلهم مطربشون !
وهمت بالتسليم عليها ، ولكن صدتنى العصابة التي كانت تحرسها مني ، وصدتنى أن مكاني كان قريباً من مكان رئيس الوزراء ثم تقوض المجلس وانفض الناس ، والدنيا اجتماع وافتراق

كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية في المساء ؟ إنها ستكون بالسهرة البغدادية التي وعِدَ بها المؤتمرون وأنا ممنوع من سهرة بغداد
ولكن من الذي يمنني ؟
هو أمين العاصمة حضرة صاحب المال أرشد العمري .
أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !
أأنت الذي يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب في قديم ولا حديث ؟
أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

وأخذت أفكر فيما سأصنع ، فهذه الظبية ستكون في المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب في رياضة العصابة التي تحرسها مني !
وأنا قد تعلمت الرقص في باريس وأخشى أن أنساه ، وهيلة العلم مذاكرته كما قال القدماء

وهل من الإثم أن أهتم بهذاكرة ما تملت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمال في سبيل الرقص ما أنفقت لتضييع منى فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟

لا بُدَّ من حضور هذه السهرة .

لا بُدَّ مما ليس منه بُدَّ

ولكن كيف ألقى معالي أرشد العمرى وهو غضبان ؟ أقف فنتناوش وتتضارب ؟ وهل أرسلتني مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟

لو كانت المسألة بيني وبين هذا الرجل مسألة شخصية لضاربتة وقاتلته بلا تهيب . وما أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دى في خلق الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى في بغداد أفنتنى بأن مصر لا بدَّ لها من مودة العراق ، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس . وهذه المواطن ليست جديدة عندي ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحلف الشريف بين المصريين والبابليين ، وما جاز في عهد الجاهلية لا يستحيل في عهد الاسلام إلا أن نكون من الأغبياء

وتذكرت أن بغداد تحوطني بأشرف معاني العطف ، وأنه ليس من الدوق أن أخرج رجلاً هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سنًا ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضرب من الموقر وتذكرت شعار مصر وشعار العراق

أما شعار مصر فهو : « أحرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا » وأما شعار العراق فهو :

سيوفنا قاطعة لى يقابحنا ورقابنا قنطرة لى يساحنا وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس في السهرة ، وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجبر إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس الزكوم منظره سخي ، فما الذى يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خله في السهرات هذا حل موفى ، ولكن لا بدَّ من الاحتياط ، والاحتياط

هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، ومذهبهم هو أن تحتل أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

كان طريق من باب المعظم إلى بهو أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال ، فقد كانت ليلة عيد ، وكان القمر ينظر إلى فى ترفق كأننا فى سنترىس ، ولكن صدرى كان مكروباً بمض الكرب . فقد كانت ليلة الميد لا تقع إلا وهى موعد غرام ، وهى فى هذه المرة قد تكون حومة قتال

مشيت مشية التمهّل لأجتلى طلعة القمر ، أو لأؤخر الشر لحظات .

فلما دخلت البهو وجدته خالياً ، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقت الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية ؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلى الذى تفكر المقادير فى شغله بالحب ، وجدته كالعادة التى تنتظر الماشق الصوال

دخلت وحدى وتلفت فلم أجد أحداً ؛ وبعد لحظة لمحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيح وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يمدو إلى عدواً فقلت : هذه طليعة الشر ، وتأهبت للصيال

ولكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف ، فقد حيانى أجل نحية ، وأخذ يدي برفق فدلى على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام ، فقلت :

سيدى ، هل لك أن تذكرنى متى تلاقينا أول مرة ؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس ، ذكرنى فقد نسيت ! فأجاب فى لطف :

ما أذكر يا مولاي أننا تلاقينا قبل اليوم ، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة ، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق

فرفعت الكأس وقلت : تعيش بغداد ، وبحيا العراق ! وسألت بعد ذلك عن اسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب ندرس الياور ، وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقى بغير الابتسام

حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللوم أن نكون بخلاء

طافت هذه الخواطر بنفسى وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت إن ليلتى هذه لن تخلو من سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمت سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني

وقبلت يدها فابتسمت

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرفت ولكنى لم أكّد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك ! يا دكتور مبارك !
فالتفت مذعوراً فإذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقت القضيحة ، وجمت أشنات قواي وقلت : نعم ، يا سيد !

فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعر كم شوق

فقلت : وماذا قال شوق ؟

فأجاب إنه قال :

نظرة فابتسامه فسلام فكلام فوعده فلقاء

فهو قد فرض أن تسبق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قبلت

بدون مقدمات

فقلت : يا سعادة الأستاذ ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . إن شوق قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ماعرف الناس ، ونحن اليوم في عصر اللاسلكي والطيران فلا تلمنى إن قبلت بدون مقدمات ، فن العقل أن تتخلق بأخلاق الزمان

طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقني عن طريق مؤلفاتي ، وسيكون من الذين أقبل من أجلهم ترى بغداد يوم أفارق بغداد ، ومداقة الأرواح شئ نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال

وكانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضت والقلب يتبعها . في حين وقعت من الدهر فأن ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلم !

نحن الآن في بغداد ، في ليلة ما رأى مثلها الرشيد ، وإن نسب الواصفون في التذكير بليالي الرشيد . هي ليلة بغدادية لا قاهرية ، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب ، ويختلف حولها الفقهاء ؛ أما بغداد فتعرف الليالي الساهرة عن الآباء والجدود . هي ليلة سيد كرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التي يماني فيها سكرات الموت ؛ هي ليلة تمثل الفتوة المراقية وتذكر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت كان الناس كلهم في سماحة الملوك ، وكنت وحدي أبخل الحاضرين ، فقد سألت رجل عظيم متى أرقص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أني ذهبت إلى ناحية قصبة وراقصت ثلاث فتيات ، وعافرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الكرام السكانيين جريدة الحساب

لا أدري والله ماذا صنعت في تلك الليلة ، إلا حادثتين اثنتين : الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص فقد ارتفعت الأصوات : بحيا الله دكتور زكي مبارك ! وكان الأستاذ على الحارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمي فلم يتردد كما كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ ثم شق الصفوف إلى فماتني وهو يقول : أنا فرحان لك يا دكتور زكي ! فرحان لك يا أخوى ، فرحان لك يا حبيبي ، فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر في العراق

وإنما عدت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا في قليل من الأحيان

ولا مؤاخذه يا جارم بك ، يا حبيبي يا نور عيوني ، يا أحلى من

ملح رشيد !

أما الحادثة الثانية فهي طرفة لا تقع من رجل سوى فقد عثرت في الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة في مرقص ، فقلت في نفسي : ما الذي يمنع من التصديق على هذه الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا في الحقيقة « رجل إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجل آدمي » كما يعبر أهل دمشق . وما أذكر أبداً أن سأثلا سألتني وخيبتني ، وأنا لا أستحي من الجود بالقليل لأنه على كل

كنت أول من دخل البهو في تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت البيت هناك لأستنشق ما بقي من أنفاس الأطباء

رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قبيل الشروق ، فرأيت مصاييح البيت كلها مضادة ، ورأيتني في ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أنني دخلت البيت بلا وعي ولا إحساس

ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالي بغداد وإلى معالي أرشد العمرى تحيتي وثنائي

هذا صباح العيد ، وهذا طوافي برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضي حين قال :
نحاسن أقدار الدجى بوجوههم فنبهرها نوراً ونظلبها سعاداً
نخالهم غيماً إذا بذلوا الندى ونحسبهم جناً إذا ركبوا الجردا
هذا هو الرجل العذب الروح النبيل الشامل جميل المدنى
رئيس الوزراء الذى لا يصدق من يرى صباحة وجهه أنه من ستاديد القتال ، والليت لا يكون شتيماً في كل حين
وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذى أحبيته منذ رأيت به في سهرات رمضان

وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يرانى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس

ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، وكنت أعثل نوري باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون ، فأراه فتى خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ؛ ويقبل على فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنى قرأت جميع مؤلفاتك

وبروعى هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك حفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس »

ويقبل على الحاضرون فيسألون عن صحة ليلي ، فيتسم نوري باشا ويقول :

« إن ليلي المريضة في العراق هي شبكة ينصبها الدكتور زكي مبارك لتقع فيها إحدى اللياليات »
وأنا لم من ذلك فأقول : « إن مولاي نسي أنه تالطف فأعان

الضابط عبد الحبيب على الانخراط في سلك الجيش العراقي سنة ١٩٢٦ »

ويعمج نوري باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفى الله ليلي على يدك »

ثم نمضى فنزور معالي مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذى أفهم العالم أن من واجب الجيش الإنجليزي أن يحسب ألف حساب للجيش العراقي ، ونسمع الفصاحة المربية التى كانت تمذّب وتطيب على ألسنة الفاضحين

وفي مساء يوم العيد تحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشاركنا فيه أقطاب العراق

وفي اليوم التالى أمضى لائقاء محاضرتى في المؤتمر الطبى فيقبل على عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك »

ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد سارت طلمتك بهجة لأطفال بغداد يا دكتور مبارك ! » فينهمل دمي وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وهذا يشبه عبد المجيد ، وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان »

أبتأى الأعزاء ، لقد نهبتى منكم بغداد ، فاغفروا لى ذنبى فا ذقت حلاوة العيش إلا فى بغداد

تحدثت عن الليلة السعيدة التى أقامها معالي أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالى الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهى ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع في تلك الليلة من ضروب الفتون ، فقد تمر أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب

ومن الواجب على وقد أحاب الأطباء دعوتى فمقدوا المؤتمر الماشر فى بغداد ليعاونوني على مداواة ليلي ، من الواجب أن أسجل بقلبي ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليلال أروع وأنضر من ليالي الرشيد ، ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .

« للحديث شجون » زكى مبارك